العولمة والتراث: "مثاقفة أم اختراق؟"

عبد السلام صحراوي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر

ملخص:

هل العولمة شكل من أشكال التعاون والتكامل والمشاركة بين الشعوب والأمم المختلفة، أم هي وجه جديد من أوجه الإمبريالية والاستعمار والهيمنة الغربية؟ تحاول هذه المقاربة تجاوز - والالتفاف على – مفهوم " فرنسيس فوكوياما" و"صمويل هنتغتون " بخصوص العولمة والتاريخ والحضارة والتراث الثقافي ..

Résumé :

La mondialisation, est-ce une forme de coopération, une complémentarité, et une participation entre les peuples et les différentes nations, ou bien, est-ce un nouveau visage de l'impérialisme et du colonialisme occidental ? Cette approche essaye de contourner le concept de F. Fokouyama et S. P. Huntington sur la mondialisation, l'histoire, la civilisation, et le patrimoine culturel.

***

العولمة ومؤشرات ظهورها

تبدو العولمة كما لو كانت ظاهرة تعكس نظاما عالميا جديدا كونيا وشاملا، يهدف إلى تحقيق المزيد من الترابط والتداخل والتعاون بين كافة دول العالم في جميع مجالات الحياة؛ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأمنية والثقافية وغيرها من المجالات المستحدثة كالتكنولوجيا والاتصالات والتنسيق في مجالات التجارة والاقتصاد ومكافحة الأوبئة والتضامن إزاء الكوارث الطبيعية .. وما إلى ذلك. وفي هذا النظام العالمي الجديد تختفي صفة السيادة الوطنية للدولة، لأنّ حرية الدولة الوطنية في ظلّ العولمة ممثلة في النظام العالمي الجديد تكون مقيدة أو ناقصة ،وتعكس شكلا من أشكال التبعية يفرضه انضمامها إلى المنظمات والهيئات والنوادي الدولية، وتوقيعها على الاتفاقيات والمعاهدات العالمية. وقد كانت هناك مؤشرات أولى بشّرت وأشرت إلى ظهور العولمة، وساعدت على نمو هذا التوجه وجعلت منه شبه حتمية تاريخية لا يمكن الوقوف أمامها أو التصدي لها.

بعض مؤشرات ظهور العولمة

هناك عدد من المؤشرات التي بشرت بظهور العولمة، تمثلت في بعض المظاهر والتطورات والإنجازات تحققت عبر العالم، وأكدت ظهور نمط جديد يحكم الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية . وهذه المؤشرات كانت بدايتها عبارة عن مظاهر تطورت تدريجيا خلال عقود من الزمان وأفضت في النهاية إلى عولمة الحياة وتكريس نمط جديد. فالعولمة ليست حدثا في حدّ ذاتها، ولا يمكن التأريخ لها بدء من تاريخ معين ومحدد. ولقد كان من ضمن تلك المؤشرات الأولى للعولمة ما يلي :

ـ التنسيق على مستوى العالم في توقيت الساعات وفق توقيت موحد و هو توقيت جرينتش وكان ذلك عام 1884م.

ـ ظهور أول خدمة للتلغراف عبر المحيطات عام 1866م.

ـ إنشاء عصبة الأمم عام 1919م.

ـ ظهور أول إذاعة عالمية بالراديو عبر كل المعمورة سنة 1930م.

ـ إنشاء ميثاق الأمم المتحدة عام 1945 م، الذي كان الهدف منه تحقيق التعاون الدولي لاسيما في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ـ إنشاء محكمة العدل الدولية ـ ومجلس الأمن للمحافظة على السلام في العالم .

ـ عقد الاتفاقيات الأولى للتجارة والتعريفات الجمركية (الجات) منذ العام 1946 والمصادقة عليها عام 1974م.

ـ إنشاء أول نظام إلكتروني لأسعار صرف الأوراق المالية عام 1971م.

ـ عقد أول مؤتمر للأمم المتحدة حول التنمية البشرية 1972م.

ـ انطلاق البث الإذاعي المباشر للأقمار الصناعية من خلال الأطباق المقامة على أسطح المنازل والبنايات عام 1976م.

ـ بدء الاستخدام التجاري للكابلات المصنوعة من الأنسجة البصرية التي زادت من القدرة على الاتصالات اللاسلكية عام 1977م.

ـ استكمال ربط كابل من الأنسجة البصرية حول العالم عام 1997م .

كل هذه الإنجازات وغيرها عمقت التوجه نحو فكر جديد يضع في الحسبان أن العالم يسير في طريق التحول السريع إلى نظام عالمي جديد.

بالإضافة إلى ما سبق فإنّ الدول الاستعمارية الأوروبية وأمريكا استطاعت أن تحقق اكتشافات علمية مدهشة وراحت تحول العالم إلى قرية كونية صغيرة خصوصا بعد اكتشاف الليزر واستخدامه في مجالات مختلفة ومتعددة لا سيما ما تعلق منها بتكنولوجيا حرب النجوم والعمليات العسكرية. بالإضافة إلى اختراعات أخرى مما حوّل العالم بالفعل إلى قرية كونية. وراح المجتمع الدولي وكافة شعوب المعمورة يحلمون بتحقيق عهد جديد غير مسبوق يعم فيه السلام كافة أرجاء المعمورة. وقد أغرى هذا الحلم الجميل الكثير من الشعوب والدول في شمال المعمورة وجنوبها فانخرطت في سياق هذا المشروع الذي تديره

وتشرف عليه دول الاستعمار القديم وأمريكا التي لم تستطع بعد التخلص من عقدها القديمة وفكرها الاستعماري برغم تغنيها بالقيم الإنسانية ورفع شعارات حقوق الإنسان.

وفي حقيقة الأمر، فإنّ الدول الاستعمارية وأمريكا، كانت قد استنزفت ثروات الدول المستعمرة إلى أبعد الحدود في أثناء فترات الاستعمار، وهو الأمر الذي "أدى إلى زيادة ثرواتها وإصلاح أحوالها الاقتصادية مبكرا، بحيث لما استقلت البلدان المستعمرة وجدت البون شاسعا بينها وبين الدول الاستعمارية في جميع المجالات الاقتصادية والعسكرية فصار يطلق مسمّى الدول المتقدمة على دول الغرب الأوروبية وأمريكا ،ومسمّى الدول المتخلفة أو النامية على الدول التي كانت مستعمرة، والدول الفقيرة.." [1] كما استحدث لفظ " دول الشمال" للدلالة على الدول المتقدمة ولفظ "دول الجنوب" للدلالة على الدول الفقيرة.

ولردم الهوة بين الشمال والجنوب، راحت الدول الاستعمارية وأمريكا تربط بين الحلم الجميل في أن يعيش المجتمع العالمي في السلم والرخاء والرفاهية وبين مصطلح العولمة. "فأشاعوا بأنّ العولمة والتقدم السريع للتكنولوجيا يقدمان فرصا لا سابق لها لتطور التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وظهرت مؤسسات دولية كالبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي لإقراض الشعوب الفقيرة ولتشجيع التنمية والاستثمارات في بلدان العالم الثالث، وصار هناك مروّجون للعولمة في كل ناد ..."[2]

العولمة : الظاهر والباطن

موضوعات متنوعة للعولمة تغري الشعوب المختلفة بالمسارعة إليها كما يقول أحد الباحثين، "كتعلم التكنولوجيا الحديثة، والتنمية الاقتصادية ، والتفوق المعلوماتي، وتطوير السلاح، والدخول في مجالات الصناعات المعقدة مثل الصناعات الإلكترونية... إلى غير ذلك من أنواع الطعوم التي تمثل الاحتياجات الضرورية للشعوب والمجتمعات في العصر الحديث لا سيما دول وشعوب العالم الثالث"[3] وهناك حقيقة راهنة لا بد من الإشارة إليها وهي أنّ الولايات المتحدة الأمريكية قد صارت بعد انهيار الاتحاد السوفييتي تمثل القطب الأوحد قوة وجبروتا. وأنها تملك من أسباب القوة والتفوق تكنولوجيا واقتصاديا وعسكريا ما يجعلها اليوم تتصرف كما لوكان العالم ملكها. وأنّ لها الوصاية على هذا العالم, نتيجة الغرور الذي أصابها والغطرسة.. ولهذا فكل ما يجري في العالم من خير وشر ـ وأكثره شر ـ هو بتزكية ومباركة أمريكا. وقد أصبح لفظ "العولمة" يرادف في كثير من الأحيان لفظ "الأمركة". وهناك حقيقة ثانية هي أنّ دول أوروبا أدركت تماما قوة أمريكا المتزايدة ونفوذها المتنامي في العالم. ولأنّ أوروبا عندما تكون منقسمة على نفسها لا تستطيع أن تقف في وجه هذا النفوذ الأمريكي، لذا قامت الدول الأوروبية بإقامة ما يسمى بالاتحاد الأوروبي وذلك في محاولة خجولة لمواجهة القطب الأحادي في العالم المعاصر. ولعلها بذلك أيضا تستطيع حماية مصالحها والمحافظة على حرية القرار السياسي وتكون أكثر قوة وتأثيرا منه وهي منقسمة ومبعثرة. ولذا فقد اقترن مفهوم العولمة بمفهوم الأمركة، ومفهوم الأوربة أيضا حين تكون رياح العولمة آتية من ناحية الاتحاد الأوروبي .. وفي كل الأحوال فقد اقترنت العولمة عموما بالمفهوم الغربي ـ الأمريكي وهو المفهوم الذي يقوم في الغالب على "إيهام الشعوب على المستوى العالمي بوجوب الانتماء إلى ثقافة عالمية واحدة وطمس الفروق الحضارية

بين المجتمعات مع الإيمان بأنّ الثقافة العالمية يجب أن تستمد من الثقافة المركزية الغربية المهيمنة باعتبارها القاعدة الأهم والأكثر تأطيرا للمشروع الثقافي العولمي."[4]

إن العولمة بهذا المفهوم الذي أشرنا إليه تخرج عن مسارها الصحيح ومعانيها الحقيقية التي تعني المشاركة والتعاون والتكامل والتشاور والمثاقفة والتلاقح بعيدا عن الهيمنة واستخدام القوة وبعيدا عن الجبروت والتسلط والتعسف. فالعولمة كفكرة، أو كنظام عام "يشمل الإنسانية جمعاء، يتيح للإنسان حقه في التميّز وتحقيق الذات وفي الوقت نفسه فرص التمتع بالمنجزات العالمية الإيجابية، لا يمكن إلا أن تكون مطلبا إنسانيا ساميا، ولهذا فالعولمة لا يمكن أن تتحقق إلاّ بمقدار ما تحمله من قيم العدل، الكمال، الشمول، والنزاهة، وهي قيم في أسمى معانيها لا تتحقق من خلال ما تبشر به أمريكا ورأسماليتها وتفرضه من آليات لتطبيقها."[5]

والعولمة بالمفهوم الذي تريده بعض دول الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية يحمل في طياته مشروع تدمير التراث والتاريخ وثقافة الأطراف والإبقاء على ثقافة المركز الرأسمالي، باعتبارها الثقافة الوحيدة الصالحة للمجتمع العالمي المعاصر، والمناسبة والمتناغمة مع الرأسمالية اللبرالية الغربية. ومن هنا تأتي نوايا طمس ثقافة وتراث الشعوب والأمم ومحاولة فرض مسخ حقيقي ممنهج للهويات الوطنية والخصوصيات الثقافية.

ولذا، فالتوجه إلى العولمة ليس شرا في حدّ ذاته، وإنّما الشر في ما تحمله العولمة من شر. لقد كانت العولمة باستمرار، وعلى مدى تاريخ الأمم والشعوب مطلبا إنسانيا رائعا كما كانت أيضا مطلب كل العظماء وحلمهم وهدف كل القادة وكل الديانات الكبرى في العالم . لقد حاول اليونان منذ القديم بسط نفوذهم على العالم وكذلك فعل الرومان. وكذلك أرادت "المسيحية" أن تكون دينا عالميا وكونيا وهي تحاول إلى اليوم أن تكون كذلك .. وأمّا الإسلام فقد كان ولا يزال دينا عالميا، دين السلام والرحمة والمودة بين الناس، وهو عقيدة وشريعة وعبادة ونظام للحياة البشرية، ومنهج وصراط مستقيم، فرسالة الإسلام ليست خاصة بشعب من الشعوب، ولا بأمة دون غيرها من الأمم، مصداقا لقوله تعالى: (وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين). فالقرآن الكريم رسالة إلى كلّ الناس في كلّ بقاع الدنيا وفي كلّ زمان.. يقول عزّ وجلّ: (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلاّ هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون). [6] ويقول جلّ جلاله في سورة الحجرات: (يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير). [7]

إنّ النصوص القرآنية تدلنا بوضوح على أنّ هذا الدين جاء للبشرية جمعاء وهو دين إخاء ومساواة ورحمة ..وتلك هي العولمة الإسلامية التي تحقق الأمن والسعادة للأفراد والشعوب وتقوم على المشاركة والمحبة والعمل الصالح بعيدا عن البغض والعنصرية والغطرسة ..

وأما العولمة التي تقودها وتديرها بعض دول الغرب وعلى رأسها أمريكا فهي عولمة قائمة على فرض ضوابط وآليات لتوجيه السياسة العالمية و"تحاول إخضاع الحياة الاجتماعية لمختلف شعوب العالم للمنطق الفريد للرأسمالية.."[8] وتسويق النموذج الغربي في

السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة. وليس أدل على ذلك من أنّ الجدل الذي شهده مفهوم العولمة في الغرب قد قام أساسا على نظريتين مختلفتين في المنطلقات والتحليل، متفقتين في المرامي والأهداف ؛ إنهما نظرية نهاية التاريخ لـ "فراسيس فوكوياما"F - fukuyama، ونظرية صدام الحضارات لـ "صموئيل هنتنغتون S-P Huntington" أو ما يعرف بـ"الغرب ضد الباقي" the West and the rest .. وكلتاهما تخفي بُعدا عنصريا وتؤكد بـلا هوادة "على محورية ومركزية النموذج الغربي واستعلائه على بقية العالم."[9]

أولا: فوكوياما ومقولة نهاية التاريخ

يرى فوكوياما ـ وهو المفكر الياباني الأصل الأمريكي الجنسية ـ في كتابه المشهور "نهاية التاريخ والرجل الأخير"the end of History and the last man، أنّ كلاّ من هيجل وماركس كانا يريان أنّ التاريخ البشري سيبلغ يوما نهايته لا سيما عندما يبلغ المجتمع البشري شكلا من الأشكال ودرجة من إشباع المجتمع لحاجاته الأساسية والرئيسية ؛ ويتمثل ذلك الشكل عند هيجل في الدولة الليبرالية، بينما يتمثل عند ماركس في شكل المجتمع الشيوعي وما يبلغه من تنظيم وتطور واكتفاء وإشباع للحاجات. غير أنّ فوكوياما يعتنق وبشدة فكرة الديمقراطية الليبرالية ويرى أنّ "العالم بأسره قد وصل إلى ما يشبه الإجماع بشأن الديمقراطية اللبرالية كنظام صالح للحكم بعد أن لحقت الهزيمة بالأيديولوجيات المنافسة. وهذا يعود إلى أنّ الديمقراطية اللبرالية خالية من تلك التناقضات الأساسية الداخلية التي شابت الأشكال السابقة للحكم".[10]

وقد تمحورت فكرة هذا المنظّر على إمكانية بناء تاريخ جديد للبشرية ويكون تاريخا عالميا متماسكا وواضح المعالم، وله غايات محددة يقوم على الديمقراطية اللبرالية التي ستسود العالم وتكون النموذج الأمثل والصالح الذي ستفضي إليه ـ لا محالة ـ الصيرورة التاريخية لكل المجتمعات. وهو يرى أنّ التاريخ التقليدي قد انتهى باعتباره سلسلة من الأحداث المتلاحقة تصنع تاريخ الشعوب والأمم على انفراد. وأنّ المجتمع البشري يسير لا محالة ولا ريب باتجاه الديمقراطية اللبرالية التي يعتبرها نهاية التطور الأيديولوجي للإنسانية. وقد وجدت أفكار فوكوياما صدى كبيرا لها خصوصا بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وانتصار الغرب على الشرق في الحرب الباردة، وانهيار جدار برلين، وهو الأمر الذي أدى إلى توحيد أوروبا الغربية أكثر فأكثر وزيادة نفوذ أمريكا والاتحاد الأوربي في العالم بأسره .ويعتقد فوكوياما بأنّ "التاريخ قد وصل إلى نهايته بتحقيقه لغايته المتمثلة في الحرية والمساواة، هذه الأخيرة التي لا يمكن أن تتحقق إلا في ظلّ الديمقراطية اللبرالية التي تسود الولايات المتحدة الأمريكية وغرب أوروبا وستصبح نموذجا يقتدى به من الجميع". [11]

وقد اعتمد فوكوياما نموذجا علميا ـ في تقديره ـ حاول به تفسير التاريخ وتطوره وصولا إلى نهايته، وهونموذج العلوم الطبيعية المادية الحديثة التي يرى أنّ الناس جميعا يجمعون على أنها النشاط الأهم الذي يحقق غاياته وأهدافه ويتسم بالنمووالتراكم والنجاح. وتبعا لهذا فإنّ منطق العلوم الطبيعية الحديثة يبدوأنه يفرض على العالم كله (الطبيعة

والإنسان) تطورا شاملا "يتجه صوب الرأسمالية والسوق الحرة، أي ما يمكن تسميته (الرأسمالية العلمية)، الممثل الوحيد والحقيقي للمبدأ الطبيعي/المادي الواحد، قد حلّت محل (الاشتراكية العلمية)، التي كانت تدعي لنفسها شرف تمثيل المبدأ الطبيعي. وبذ، تحول الإنسان في الشرق والغرب إلى الإنسان الاقتصادي (المادي) الذي يمكن إدارة شؤونه على أسس علمية رشيدة. [12]

وواضح ما في هذه النظرة من انحياز كامل للغرب من جهة ومن محاولة تشييء كل قيمة واعتقاد وعمل في حياة الإنسان، بالإضافة إلى ما في هذه النظرة من استعلائية وعنصرية لأنها تؤكد محورية ومركزية النموذج الغربي بعيدا عن كل مثاقفة وتبادل أو مشاركة. كما أنّ التراث الثقافي والحضاري يتحول في منطق هذه النظرية إلى مجرد تاريخ بائد للإنسان لا جدوى منه ولا قيمة له لأنه انتهى بانتهاء التاريخ التقليدي.

ولا شك أنّ هذا الموقف فيه غلوو مبالغة في التجديف بعيدا عن منطق التطور السليم للمجتمع البشري. وأنّ فوكوياما بإعلانه نهاية التاريخ قد أعلن "نهاية الإنسان وانتصار الطبيعة/ المادة، أي الموضوع (اللاإنساني)على الذات (الإنسانية)، ومعناه تحول العالم بأسره إلى كيان خاضع للقوانين الواحدية المادية (التي تجسدها الحضارة الغربية، والتي لا تفرق بين الإنسان والأشياء والحيوان، والتي تحول العالم بأسره إلى مادة استعمالية. فنهاية التاريخ هي في واقع الأمر نهاية التاريخ الإنساني، وبداية التاريخ الطبيعي." [13]

ثانيا : صموئيل هنتنغتون ومقولة "صدام الحضارات "

إن هنتنغتون رغم اختلافه مع فوكوياما في الطرح والتحليل إلا أنّه يتفق معه في الأهداف والمقاصد. ومقولته في صدام الحضارات تبدو على النقيض من مقولة نهاية التاريخ لفوكوياما ،إلا أنهما يتفقان في تأكيد محورية ومركزية الديمقراطية الغربية والحضارة الغربية. كما يتفقان في النظرة العنصرية والاستعلائية لكل ما يخالف الغرب وتوجهاته. وكلاهما ينفي كل مثاقفة أو مشاركة أو تلاقح بين الأمم والثقافات والشعوب والحضارات مما يؤكد الأفكار العنصرية والاستعلائية لدى كليهما.

لقد نشر هنتنغتون في صائفة 1993 مقالته بعنوان "صدام الحضارات" the clash of civilizations أبرز فيها بشكل أساسي بأنّ الحضارة الغربية سوف تواجه حالة صراع مع الحضارات الأخرى غير الغربية. وعليها أن تتهيأ لهذا الصراع وتتخذ الاحتياطات اللازمة لحسم هذا الصراع لصالحها. كما عليها أن توفر الشروط والأسباب الضرورية لذلك. وما دام الصراع الأيديولوجي بين الشرق والغرب قد انتهى وولّى فإنّ الذي سيحدث بعده هو الصراع بين الحضارات والأمم. وهويرى أنّ العالم ينقسم إلى قسمين :الغرب من ناحية، وبقية العالم من ناحية أخرى the West and the rest وأنّ الصراع المرتقب في نظره سيقوم على الهوية الثقافية إي الاختلاف والتميز في الهويات الثقافية ومبدأ التناقض والاختلاف بينها. وواقع الأمر أنّ الغرب يستغل كل المؤسسات الدولية والأحلاف العسكرية والموارد الاقتصادية لإدارة العالم والصراع الحضاري الدائر بينه من جهة وبقية العالم من جهة بطريقة تحافظ في المقام الأول على الهيمنة الغربية وتحسم الصراع في النهاية لصالح الغرب وحضارته التي ستبقى الحضارة العالمية الوحيدة التي ستسود بقاع الدنيا دون منازع. والحقيقة إنّ القول في النهاية بحضارة عالمية واحدة هو قول مناقض بصورة مباشرة

لخصوصيات المجتمعات المختلفة وضد الطبيعة القائمة على الاختلاف والتميز. وهو قول ينفي كل حوار بين الثقافات والحضارات والأمم والشعوب. وحتما إنّ هذه الأفكار العنصرية والاستعلائية والنازية الجديدة ستشعل باستمرار مزيدا من الحروب في كل بقاع الدنيا..

ويبدو أنّ بعض ساسة الغرب وخصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية يأخذون بمنطق الصراع الذي رسمه هنتنغتون بدلا من منطق الحوار بين الثقافات والحضارات. ويتجلى ذلك في إدارتهم للصراع على حدود التمايز العقائدي والحضاري والثقافي العام .. وهم بذلك يعملون على تجسيد أفكار هنتنغتون في صراعهم الدائم مع بقية العالم في محاولة قاسية وجهنمية لإلغاء الآخر المختلف عنهم. والعمل على إعادة تشكيل النظام العالمي الجديد على أساس الصراع بين الحضارات. علما بأنّ السياسة الكونية اليوم يعاد تشكيلها على امتداد الخطوط الثقافية والحضارية. وحسب هنتنغتون ، إن الشعوب ذات الثقافات المتشابهة تتقارب فيما بينها، بينما الشعوب والدول ذات الثقافات المتمايزة والمختلفة تزداد تباعدا. كما أنّ الحدود السياسية يعاد رسمها بالنظر إلى الحدود الثقافية والحضارية لتحل المجتمعات الثقافية محل التكتلات السياسية والأيديولوجية ويصبح العرق والدين والحضارة علامات فارقة بين الشعوب والأمم وهي التي تحدد جبهات الصراع وخطوط التقسيم بين الحضارات ..[14]

ومما سبق يتضح لنا جليا أنّ هنتنغتون يرى في العولمة وفي الحداثة حدودا أخرى للصراع بين الأمم والحضارات خصوصا بين الغرب وبقية العالم. و هو ما يدلنا صراحة أنّ العولمة في المفهوم الغربي على عكس المثاقفة التي تعني التبادل والتفاعل والحوار. وهي عند هنتنغتون تحديدا تعني الصراع الحضاري والثقافي بين الثقافات، وهوما يشكل الأسس الرئيسية التي تحكم السياسة العالمية في القرن الواحد والعشرين. فهنتنغتون يرى أنّ "بعد انتهاء الحرب الباردة وانتهاء المجابهة بين الحلفين (حلف وارسو والحلف الأطلسي) التي شكلت جزءا كبيرا من القرن العشرين فإنّ العولمة سوف تعمل على ظهور صراع جديد بين الثقافات الأساسية الموجودة وخاصة بين الحضارة الغربية والحضارتين الإسلامية والكونفوشوسية"... [15]

والجدير بالذكر هنا أنّ هنتنغتون وعلى الرغم من حديثه عن التعددية الحضارية والثقافية المولدة للصراع إلا أنه يرى أنّ الحضارة الغربية هي الحضارة العالمية التي تناسب كل الناس. و هو يعني بذلك أنّ الحضارة الغربية حالة طبيعية، وهي إلى ذلك صفة مناسبة ولصيقة بالإنسان وكل من ينحرف عنها أو يرفضها فهو إنسان غير طبيعي وشاذ.. وهذا يدل أنّ التاريخ لابد أن يتبع مسارا واحدا. و هو الأمر الذي علق عليه أحد الباحثين قائلا: "ويقين هنتنغتون بشأن الحضارة الغربية باعتبارها حالة الطبيعية أمر يثير الخوف. فمن يقاوم حالة الطبيعة لابد من تقويمه بطبيعة الحال ووضعه على المسار الطبيعي، فهوالمسار الوحيد والصحيح، الأمر الذي يتطلب طبعا اتخاذ بعض الإجراءات الطبيعية غير السارة، وطرح بعض الحلول الطبيعية الجذرية النهائية ،مثل إسقاط الحكومات القومية (التي تتمسك بأهداب خصوصية زائفة)، ودكّ العواصم المقاومة التي تدافع عن قيم لا جدوى لها مثل الكرامة والعزة الوطنية، واستباحة المدن والقرى العصية التي تقاوم قانون الطبيعة والتطور الغربي ! وقد رجّحت أحداث 11 أيلول (سبتمبر) من كفة هنتنغتون على كفة فوكوياما". [16]

الخاص والعام في الحضارة والتراث
لا أحد يجادل في أنّ لكل مجتمع إنساني خصوصيته الحضارية والثقافية بحكم تاريخه الاجتماعي الخاص والفريد. وكذلك هناك خصوصية حضارية لكل مجموعة من البشر تجمعهم ثقافة مركزية تتنوع بداخلها الأنساق الفرعية للثقافات المحلية التي تشكل زخما ثقافيا وتنوعا داخل الكل المنسجم والمتناغم في إطار الانتماء إلى الثقافة المركزية الواحدة للأمة. و هو الإطار المشكّل للهوية والخصوصية في آن. وهنا يلتقي الخاص والعام "في ما يمكن أن نسميه نسق القيم الأساسية، وينبثق نسق القيم الأساس للثقافة من النظام الرائد الذي قد يكون عبارة عن دين أو أسطورة أو مذهبية فيشمل كل أنواع الثقافة متغلغلا في كل أجزائها..." [17] و هو ما يبرز بوضوح الهوية الثقافية والحضارية للأمم والشعوب ويُبقي على التميز والاختلاف بينها.

ويبدو بالمقابل أنه لا بديل عن التنوع الثقافي القائم ـ في كل الحالات الإيجابية ـ على التفاعل المستمر والدائم بين الثقافات والأخذ والعطاء كما كان الأمر دائما بين الثقافات والحضارات الكبرى في العالم التي شكلت في المحصلة تراث البشرية جمعاء. وهذا الفهم هو الاستيعاب السليم لمفهوم التراث والثقافة والحضارة؛ فحضارة الأمم والشعوب هي حضارة الإنسان، وهي ملك للبشرية جمعاء بعيدا عن العنصرية،.غير أن هناك مخاطر جمة برزت مع تيار العولمة تجعل من الضروري التنبيه إلى حماية الثقافة ذاتها من سطوة السوق وأيديولوجيا الاستهلاك، "ومقاومة كلّ المساعي الرامية إلى تسليع الثقافة وأمركتها. وفي هذا الإطار يمكن أن تلتقي تيارات ثقافية عديدة في الشمال والجنوب تجمعها الرغبة في الحفاظ على الروح النقدية في الفكر وحماية البشرية من السقوط إلى درك الاستهلاك القائم على تلبية الاحتياجات الغريزية فحسب، والسعي الجاد للنهوض بالإبداع الثقافي انطلاقا من إدراك الحقيقة التي تشير إلى أنه ليس هناك ثقافة ما تملك حق تنصيب نفسها كمرجعية كونية وحيدة" [18]

ومهما يكن من تلاقح واتصال و مثاقفة، أو استعارة وتبادل في المجال الثقافي، إلا أنه يجب علينا دائما التأكيد على أهمية التمايز الثقافي، والمحافظة على التراث الفكري والفني والأدبي والمعماري والحضاري العام. لانّ ذلك يمثل حاجة فردية وجماعية وتمسكا بالهوية والمحافظة على الذات من الذوبان ومن أن تكون عرضة للاستلاب و الغزو الثقافي. فمع الأخذ بمبدأ المثاقفة والاستعارة الثقافية و التلاقح، ينبغي أيضا العمل على الإبقاء على الاختلاف والتنوع الثقافي لأنّ ذلك يمثل بالفعل الحالة الطبيعية. وعلى الرغم من أنّ العالم اليوم صار قرية صغيرة، إلا أنّنا مع ذلك لازلنا نشاهد إلحاحا شديدا. "على إبراز الخصائص المميزة للشعوب، نشاهد ذلك في تميز الرايات والأناشيد الوطنية واللغات والأزياء الشعبية والأكلات. إنّ الرغبة التي نجدها عند الناس في إبداء مظاهر التميز والاستقلالية لمجتمعاتهم عن المجتمعات الأخرى لأكبر دليل على وجود ذلك الاختلاف الثقافي واستمراره".[19] وأمام تيار العولمة الجارف، وبعد أن صارت حقيقة لا بد من التعاطي معها في إطار التبادل و المثاقفة والانفتاح على الآخر، برزت الحاجة أكثر إلى إثبات الذات والرغبة في التميز والمحافظة على الهوية الوطنية والقومية وبعث التراث القومي وإحيائه وتحديثه ليساير متطلبات المرحلة ويواكب مقتضيات العصر الذي يشهد مرحلة غير مسبوقة علميا وتكنولوجيا. وعادة ما تكون الحاجة إلى إثبات وتحقيق الذات رغبة فردية كما يقول أحد

الباحثين، ثم "تتسع عن طريق المشاركة الوجدانية والروحية لتصبح حاجة اجتماعية، ولن يفقد المجتمع هذه الحاجة إلاّ عندما يصبح في حالة من الضعف والانهزام أمام المجتمعات الأخرى، حيث أنّ (المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب)"- ابن خلدون .[20]

العولمة والتحدي الثقافي

لابد من الإشارة إلى أنّ مشروع العولمة القائم عل النظام الكوني الجديد وغير المسبوق ،قد خلق تحديات جديدة رافقت قيام النظام العالمي الجديد، وعلى رأس تلك التحديات الجديدة التي تواجه دول الأطراف وتجعلها تحاول تأمين الثقافة والمحافظة على الهوية أمام هذا المشروع العولمي الغربي بامتياز، نجد التحدي الثقافي. إننا نشهد مشروعا كونيا هائلا يمتلك كل الإمكانيات المادية لتحقيقه وجعله حقيقة قائمة. هذا المشروع الجديد المتمثل في العولمة وما تفرضه من حقائق جديدة، لا يحمل تحديات اقتصادية وسياسية فحسب، بل يخلق أيضا تحديا ثقافيا غير مسبوق. ذلك لأنّ الخلفية الفلسفية والمضمون المعرفي لمشروع العولمة وكذلك طرق وآليات الفعل والتعميم هي التي تخلق تحديا بارزا للثقافات القومية والثقافة العربية الإسلامية على وجه الخصوص. وذلك لما للعولمة ومن يقوم على إدارتها ونشرها وتعميمها من نوايا سيئة تعكس عقدا وتوجهات عدائية تغذيها الأطماع والرغبة في الهيمنة. لأنّ الغرب الاستعماري لم يستطع تجاوز عقده التاريخية, وكون أمريكا لا تملك تاريخا وتراثا حضاريا عميقا وممتدا في أعماق التاريخ الإنساني، تريد تقويض كل تراث عريق للأمم الأخرى، متبنية مقولة فوكوياما "نهاية التاريخ"، ومستلهمة نظرية هنتغتون القائمة على صراع الحضارات. وهو ما يجري تجسيده في العراق الذي يمثل مهد الحضارة الإنسانية، حيث تمّ العبث بالتراث العربي الإسلامي، وحرق المكتبة الوطنية في بغداد، واستباحة مدينة الرشيد وعاصمة العباسين وإحدى رموز الحضارة العربية الإسلامية، وتدميرها. وتدمير المساجد والعمران، والقضاء على كل معالم التاريخ الإسلامي والعربي المجيد. لقد فعلت أمريكا أكثر مما فعله التتار والمغول. فهل يعتبر هذا مثاقفة وتبادلا ومشاركة؟ أم هو حقد وعنصرية وغطرسة وهمجية لا حدود لها؟

كما أنّ التحديات الكبرى السياسية والاقتصادية التي تفرضها العولمة لا يمكن فصلها عن التحديات الثقافية التي أجملها أحد الباحثين فيما يلي:

- كون مشروع العولمة لا يمكن فصله أو عزله عن المشروع الثقافي الغربي. وأنّ كل الممارسات في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، تخدم في المحصلة المشروع الثقافي الغربي الرأسمالي الليبرالي.
- إنّ مشروع العولمة قد وفّر للثقافة الغربية كل الإمكانيات المادية والفنية التي تجعله يساهم في صناعة الرأي العام العالمي. ولا تزال دول الغرب وعلى رأسها أمريكا تسيطر على وسائل الإعلام ومصادر المعلومات والمؤسسات المالية والهيئات الدولية وصناعة القرار. [21]

كما يشير أحد الباحثين في الحداثة وما بعد الحداثة فيما يتعلق بثقافة العولمة قائلا: "والغريب أنه مع قيام النظام الدولي الجديد، لم يعد رجل الاقتصاد بعد امتلاكه لتكنولوجيا التصرف، يترك ثقافة العولمة للمثقفين بل أصبح يضم هذه الثقافة إلى الحقل

العملي الإجرائي للاقتصاد نفسه فأصبح بذلك هو المدير لشؤون الاقتصاد والمبرر الإيديولوجي لها والماسك بثقافتها والمدافع عنها" [22] ثم يضيف صاحب هذا الرأي وهو د. فتحي التريكي قائلا: "والمبدع الحقيقي هو الذي يفضح هذا التوجه الغريب للثقافة التي أصبحت دعامة للاستغلال" . [23]

ولعلّ ما يدعم هذا الرأي، أنّ تدفق الرسائل الإعلامية والثقافية يأتي من المراكز الرأسمالية وهي صناعة غربية أوروبية أمريكية وتصب كلها في دول الأطراف ومنها دول الجنوب. حيث انقسم العالم اليوم إلى دول الشمال الغنية والمتقدمة ودول الجنوب الفقيرة وهي تعاني من مختلف الأزمات. وقد تحولت إلى مواقع لتلقي تلك الرسائل بما تحمله من قيم وتوجهات متناقضة تماما مع منظومة القيم السائدة في دول الجنوب مما يشكل خطر الغزو الثقافي الذي هو حرب على الخصوصيات المحلية والهوية الحضارية لهذه المجتمعات على الرغم مما يروج له بعض القائلين بالمثاقفة والانفتاح وهم لا يميزون ولا يعقلون. ولا يخفى على أحد أنّ هؤلاء وأولئك المروجين لثقافة وأيديولوجية السوق، قد استفادوا من أزمة الأيديولوجيات وإخفاق برامج التحرر الوطني التي جعلت الإنسان في كثير من مجتمعات ودول العالم الثالث، يعيش على الوهم وأحلام وردية كاذبة ووعود بالرفاهية والسعادة، انتهت كلها إلى إخفاقات رهيبة خلفت اليأس والإحباط في النفوس .. ولقد استغل الغرب هذا الإخفاق وهذه اللحظة الحاسمة والفراغ الأيديولوجي. وبحكم التطور التكنولوجي الرهيب في وسائل الإعلام وتكنولوجيا الاتصال "أصبحت الشعوب تواجه اليوم خطر إقامة فضاء ثقافي عالمي على النمط الأمريكي يسخّر لخدمة متطلبات السوق العالمية. وقد أثار ذلك بالفعل ردود أفعال عديدة على مستوى العالم بأسره وشجع على تنامي الأصوليات الدينية والقومية وعلى تصاعد دعوات الانكفاء على الذات والاحتماء بالهويات". [24]

تيارات ومواقف في مواجهة العولمة

ويجدر بنا في الأخير أن نشير إلى تبلور ثلاثة مواقف وتيارات من العولمة والتراث و المثاقفة وذلك من خلال تناول الكثير من الدارسين والمفكرين لقضية العولمة وموضوعاتها المختلفة. وقد برزت ثلاثة مواقف أو تيارات رئيسية من خلال الصراع الدائر بين المحافظين ودعاة الانغلاق وبين دعاة المثاقفة والانفتاح والتفاعل الثقافي. وبين دعاة الاكتفاء بالخصوصية الثقافية والحضارية، وبين القائلين بضرورة الانفتاح على الآخر والتفاعل معه ثقافيا وحضاريا في إطار المثاقفة والعولمة وما تقتضيه طبيعة الحياة المعاصرة ومنطق التحديث ومسايرة العصر. وقد تشكلت وتمثلت هذه المواقف الثلاثة على النحو التالي:

ــ الموقف الأول: ويمثله تيار المحافظين والرافضين للعولمة والمثاقفة والانفتاح، ويرى أصحاب هذا التيار أنّ الخصوصية الثقافية قادرة على الاستمرار مكتفية بذاتها ومستغنية عن ثقافة الآخرين. وكثيرا ما يثير أنصار هذا التيار ضرورة العودة إلى الأصول وإلى التراث. وهم في العالم العربي والإسلامي عادة ما يقصدون العودة إلى العصر الذهبي للإسلام، ويعتبرون ذلك درعا واقيا من أخطار التبعية للغرب والاستلاب الحضاري، وحماية للمجتمع من برامج الغزو الثقافي الممنهج. كما يشير هذا التيار عادة إلى رفضه الكامل للتحديث لكون هذا الأخير ليس محايدا، بل هوجزء من عملية التغريب التي تهدف إلى القضاء على هوية الأمة وعقيدتها وتراثها الحضاري والثقافي .

ــ الموقف الثاني: ويمثله تيار الانفتاح والمثاقفة بلا حدود وبلا ضوابط. وهم دعاة ومروجو الثقافة الغربية التي تمثل بالنسبة لهم الثقافة المنفتحة والحاملة لقيم الحرية والديمقراطية والجديرة بالاهتمام. وأنها الثقافة المركزية التي أنتجت التفوق العلمي والتكنولوجي والقادرة على تأطير المشروع الثقافي العولمي الذي يقود إلى طمس الفروق الحضارية والثقافية بين المجتمعات، ويؤدي إلى تحرير المبادرات وإطلاق الحريات والطاقات الإبداعية. ويبشر دعاة هذا التيار بثقافة واحدة تملأ الدنيا وتشغل الناس هي الثقافة الغربية .

ــ الموقف الثالث: هو المتمثل في تيار الوسطية والاعتدال الذي يؤمن أصحابه بالتمايز الثقافي والحضاري بين الشعوب والأمم المختلفة ويؤكدون على الخصوصيات الثقافية المحلية والقومية، وفي نفس الوقت، يأخذ هذا التيار بمنطق المثاقفة والتأثر والتأثير الذي ميّز مسار الحضارات الإنسانية طوال تاريخها. كما يؤكد هذا التيار على أنّ حركة التاريخ تقتضي منطق المشاركة والتفاعل وأنّ كل شيء محكوم بقوانين الجدل والصيرورة ومحكوم بالتفاعل في الزمان والمكان ليستمر في الحياة.

وفي ضوء ما يشير إليه أنصار التيار الثالث يبدو لنا الاعتدال والمواقف الوسطية كما لو كانت حلا للتحديات القائمة التي تفرضها العولمة على الأمم والشعوب خارج دول المركز. كما يبدو لنا "عدم واقعية خطاب الاستقلال الثقافي إذ أنّ ما من ثقافة في وسعها أن تحقق استقلالها عن الثقافات الأخرى التي توجد في حالة تفاعل دائم تتقارض و تتلاقح ...، كذلك تبرز مساوئ مفهوم الخصوصية الثقافية الذي يركز على الخصوصيات إلى حدّ الانغلاق على حساب الجوانب المشتركة في الثقافات الإنسانية مما يحمل شبهة العزل الثقافي."[25]

الهوامش والإحالات

1. كمال الدين عبد الغني المرسي: الخروج من فخ العولمة. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية .ط1، 2005. ص: 15.
2. المرجع نفسه. ص: 16.
3. المرجع نفسه. ص: 18.
4. المرجع نفسه. ص: 18.
5. مراد زعيمي: (العولمة والثقافة بين التكليف والتفاعل): من كتاب الجزائر والعولمة. منشورات جامعة منتوري ـ قسنطينة. ط1. 2001 .ص: 114.
6. سورة الأعراف 158.
7. سورة الحجرات 13.

8. مراد زعيمي : المرجع السابق. ص:115.
9. علي غربي : (العولمة وتجلياتها). من كتاب : الجزائر والعولمة. مرجع سابق .ص: 19.
10. عبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي: الحداثة وما بعد الحداثة. دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان + دار الفكر بدمشق، سوريه ط1 تموز 2003. ص: 160.
11. علي غربي : المرجع السابق. ص: 18.
12. عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق: ص:160، 161.
13. المرجع نفسه. ص: 161.
14. أنظر باسم علي خريسان :العولمة والتحدي الثقافي. دار الفكر العربي. بيروت، ط1. 2001.ص:157.
15. المرجع نفسه .ص: 158.
16. عبد الوهاب المسيري وفتحي التتريكي:الحداثة وما بعد الحداثة ص: 163.
17. مراد زعيمي : (الثقافة والعولمة بين التكليف والتفاعل). مرجع سابق. ص: 120.
18. كمال الدين عبد الغني المرسي: الخروج من فخ العولمة. صك 25.
19. مراد زعيمي: المرجع السابق .ص:120.
20. المرجع نفسه ص: 120.
21. أنظر محمد محفوظ: الحضور والمثاقفة، المثقف العربي وتحديات العولمة. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط1. 2000. ص:114.
22. عبد الوهاب التريكي وفتحي التريكي :الحداثة وما بعد الحداثة. ص: 251.
23. فتحي التريكي : المرجع نفسه.ص:252.
24. كمال الدين عبد الغني المرسي : الخروج من فخ العولمة. ص: 21.
25. المرجع نفسه. ص: 24.